الحقول الدّلاليّة في شعر عمر أبو ريشة
حقل الحنين إلى المكان أنموذجاً

د. بانا بلال شباني* د. محمّد حسن يونس** هبه علي ضامر**

ملخّص

الحنين إلى الوطن ظاهرة بارزة في ديوان عمر أبو ريشة؛ إذ جعل المكان والزّمان والأشخاص فضاءً لتصوير تجربته الوجوديّة النّابضة بذاك الحنين الذي امتزج بألم الفَقْد حيناً، وبمعشوقٍ حيناً آخر، وبألم وجوديّ أحياناً أخرى، إنّه شعور يشدّ المرء إلى الماضي بكلّ شخوصه وأحداثه وأمكنته وفضاءاته، فكان هذا الشّعور بوحه الذي يشي بقلق داخليّ منبثق بين الحال والمآل وما كان في الماضي.

ويمثّل الحنين لدى عمر أبو ريشة رؤية وجدانيّة وجوديّة في الآن ذاته، إنّه يصوّر علاقة الإنسان بالمكان والزّمان، والفَقْد والذاكرة في لحظات البُعد حين تتأجّج مشاعر الشّوق، ويتحوّل الحنين إلى منظومة متكاملة من الأحاسيس تعكس ارتباط الإنسان بجذوره وعالمه الإنسانيّ والحضاريّ.

لقد نبض الحنين في شعر عمر أبو ريشة بوجدانيّات عميقة بالهويّة والذاكرة الثقافيّة، فكان متّصلاً بتجربة الشّاعر وعلاقته بالوطن والأرض والنّاس والقيم، وهذا جعل الحقول الانتمائيّة تتنامى تاركة رواسب الآهات والدّموع والأماني بالاستقرار والعودة إلى الوطن، وهذا ما جعل الشّاعر عمر أبو ريشة يجسّد حنينه في إطار مشاهد صراع نفسيّ اعتمل في داخله حين أراد الوصال مع الأحبّة، فلاقى البعد والصّدّ، وأراد العيش في الوطن، فكان مصيره البعد والهجرة القسريّة، ما جعله يبوح بفلسفة وجدانيّة خاصّة حوّلت المشهد بمحتوياته المادّيّة إلى حقل دلاليّ معنويّ حاضن لتجربته الشّعوريّة.

وتنوّعت العلاقات التي رصد فيها الشّاعر عمر أبو ريشة حنينه، فاستند إلى التّنافر، والتّضاد، وعلاقة الجزء بالكلّ، والتّرادف، الذي أبرز وعيه للمكان والإنسان، وقدرته على تجسيد بنية نابضة بفلسفته وعواطفه ورؤاه.

الكلمات المفتاحيّة: الحقول الدّلاليّة، عمر أبو ريشة، الدّلالة، الحنين، العلاقات.

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة اللاذقيّة ، اختصاص فقه اللغة .

** مدرّس في قسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة اللاذقيّة ، اختصاص علم اللغة.
*** طالبة دكتوراه – قسم اللّغة العربيّة – كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة اللاذقيّة – اللاذقيّة .

Semantic Fields in the Poetry of Omar Abu Risha
The Field of Nostalgia for Place as a Model

Dr.. Bana Bilal Shabani*

Dr.. Muhammad Hassan Younis**

Heba Ali Damer **

Summary

Nostalgia for the homeland is a prominent phenomenon in the poetry of Omar Abu Risha; he made the place, time, and people a space to depict his existential experience pulsating with that longing that was mixed with the pain of loss at times, with a beloved at other times, and with existential pain at other times, It is a feeling that pulls one towards the past with all its people, events, places and spaces. This feeling was a reflection of an internal anxiety arising between the present and the future and what was in the past.

For Omar Abu Risha, nostalgia represents an existential and emotional vision at the same time. It reflects the relationship of man to place and time, loss and memory in moments of separation when feelings of longing are inflamed, and nostalgia turns into an integrated system of feelings that reflects man's connection to his roots and his human and civilizational world.

Nostalgia pulsated in Omar Abu Risha's poetry with deep emotions of identity and cultural memory, and it was connected to the poet's experience and his relationship with the homeland, the land, the people, and the values. This made the field of belonging grow, leaving behind residues of sighs, tears, and wishes for stability and return to the homeland, This is what made the poet Omar Abu Risha embody his longing within the framework of scenes of psychological conflict that raged inside him when he wanted to connect with his loved ones, but he encountered distance and rejection, and he wanted to live in the homeland, but his fate was distance and forced migration, which made him express a special emotional philosophy that transformed the scene with its material contents into a symbolic and moral field that embraced his emotional experience.

The relationships in which the poet Omar Abu Risha observed his longing were varied, and he relied on dissonance, contradiction, the relationship of the part to the whole, and synonymy, which reflected his awareness of place and man, and highlighted his ability to embody a structure pulsating with his philosophy, emotions, and visions.

Keywords: Semantic fields, Omar Abu Risha, meaning, nostalgia, relationships.

---

* Assistant Professor in the Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Lattakia University, specializing in Philology.

** Lecturer in the Arabic Language Department, Faculty of Arts, Lattakia University, specializing in linguistics.

*** PhD student - Department of Arabic Language - Faculty of Arts and Human Sciences - Lattakia University - Lattakia.

مقدّمة:

الحنين شعور وجدانيّ ينبض في أعماق الأحبّة والخلان وأبناء الوطن في فيافي الغربة، وقد برز في شعر عمر أبو ريشة، فاخترنا أن تكون دراستنا حول هذا الحقل الدّلاليّ بعنوان: (الحقول الدّلاليّة في شعر عمر أبو ريشة – حقل الحنين أنموذجاً)، وذلك لإبراز جماليّة هذا النّزوع العاطفيّ المعبّر عن صلة الإنسان بجذوره وذاكرته وأحبّته، فصار الحنين استدعاءً لذاكرته الرّاغبة في استعادة الماضي، واللحظات مع الأحبّة في رحاب الوطن.

أهمّيّة البحث:

تتجلّى أهمّيّة البحث من سعيه للكشف عن البنية الدّلاليّة والعاطفيّة لظاهرة الحنين في شعر عمر أبو ريشة، وفقاً لحنينه إلى الأشخاص والأماكن والأحداث واللحظات الماضويّة، وتذوّق حقوله الدّلاليّة المكوّنة لمفردات ذاك الحنين.

هدف البحث:

كان هدف البحث الإسهام في توسيع آفاق الدّراسات الدّلاليّة حول الحنين عبر تقديم نموذج تطبيقيّ لدراسة مفردات الحنين في قصائده، وتداخلها مع الذاكرة الثقافيّة والذاتيّة لتجربة الشّاعر المعيشة في الغربة، وإبراز القيمة الجماليّة والفكريّة لتلك الظّاهرة في تكوين رؤية الشّاعر للعالم والوجود.

الدّراسات السّابقة:

حفل شعر عمر أبو ريشة باهتمام الباحثين، وقد تعدّدت الدّراسات السّابقة حوله، منها:

- عمر أبو ريشة شاعر الحبّ والوطن، عبد العزيز النّعماني، الدّار المصريّة اللبنانيّة، القاهرة – مصر، ط1، 1997م.

وقد تضمّن هذا الكتاب ثلاثة فصول، درس في الأوّل بدايات عمر أبو ريشة، وفي الثاني الجانب الإنساني والحسّ القوميّ لديه، وخصّص الفصل الثالث لدراسة الشّاعر وقضايا عصره (الحبّ والوطن).

- معجم الحقول الدّلاليّة في قصيدة (في أذن الشّرق) للشّاعر الجزائريّ محمّد العيد آل خليفة ، وهو بحث منشور في مجلّة عود النّد، مجلّة ثقافيّة فصليّة، الجزائر، السّنة (8)، العدد (85)،

2013. وقد ألقى البحث الضّوء على أهمِّيّة معجم الحقول الدّلاليّة في تحليل النّصّ الأدبيّ عامّة، والشّعريّ منه خاصّة.

وينماز هذا البحث عن غيره من الدّراسات السّابقة، في دراسة جانب من الجوانب التي لم تدرس سابقاً، وبيان دور العلاقات الدّلاليّة في تحديد المعنى.

منهج البحث:

استند البحث إلى المنهج الوصفيّ التّحليليّ الذي أفادنا في تحديد الظّاهرة وتذوّقها وتحليلها، واستقراء مفرداتها، وتمحور البحث وموضوعه في إطار توصيفيّ أساسه حقول الحنين إلى الوطن، والمحبوبة، والأهل، والماضي والشّباب وغير ذلك، ما أسهم في منح البحث مجالاً لرصد العلاقات الدّلاليّة النّاشئة بين تلك الحقول.

منهجيّة البحث:

اقتضت الدّراسة أن تكون وفق مقدّمة وتمهيد يعرّف بالحقول الدّلاليّة، ومن ثمّ دراسة حقل الحنين إلى الوطن، بحنينه إلى المكان، وانتهت الدّراسة بخاتمة وثبت للمصادر والمراجع.

في المفاهيم:

مفهوم الحقل الدّلالي:

يتكوّن الحقل الدّلاليّ من مفردتين هما:

- الحقل.
- الدّلالة.

وللمفردتين معانٍ معجميّة لغويّة، وأخرى اصطلاحيّة، نُبيّنها وفقاً للآتي:

الحقل لغة:

جاء في معنى الجذر (حقل) ما يأتي: الحقل: "الموضع البكر الذي لم تتمّ زراعته قبل ذلك"[1]. فالحقل هو المساحة المحدّدة التي تمتدّ على طولٍ ما، وعرضٍ ما، ولها تضاريسها وحدودها.

[1] لسان العرب، ابن منظور، اعتنى بتصحيحه أمين محمّد عبد الوهّاب، ومحمّد الصّادق العبيديّ، دار إحياء التّراث العربيّ، مؤسّسة التّاريخ الإسلاميّ، بيروت – لبنان، ط3، 1419 هـ – 1999 م، مادّة (حقل)، ج262/3.

الحقل اصطلاحاً:

هو "العمود الذي تندرج ضمنه وحدات لغويّة تجمعها خصائص مشتركة، كالألوان والأمراض، والصّفات وغيرها، فهو يجمع كلمات مرتبطة دلاليّاً تُصنّفُها –ضمنَ لفظٍ عامّ في زمن محدّد– لغةٌ معيّنةٌ محدّدةٌ"[1].

فالحقل مجال دلاليّ لجزئيّات ترتبط فيما بينها بصلة ما، وهذه الجزئيّات قد تكون كلماتٍ أو محسوسات، أو مجرّدات، أو أفعال، أو غير ذلك، فالحقل الدّلاليّ حقل ممتدّ متّسع، وله في كلّ مجال مساحة خاصّة؛ لأنّ الانطلاق من الرّؤية العامّة للأجزاء يسهّل فهم علاقة الأجزاء بعضها مع بعض؛ ولذا كان الحقل عند اللغويّين عالماً من العطاء؛ لأنّه يهب الدّارس والمتلقّي كثيراً من المستويات المعرفيّة المتعلّقة بالدّلالات المتنوّعة.

الدّلالة لغة:

من الجذر اللغويّ (دلل)، وفيها: "الدّليل ما يستدلّ به، والدّليل: الدّالّ، وقد دلّه على الطّريق يدلّه دلالة، والفتح أعلى... والدّليل والدّليلي الذي يدلّك.. والدّليلي علمه بالدّلالة ورسوخه فيها، ... أدلّة: جمع دليل"[2]، فالمعنى لدى ابن منظور انحصر في نطاق العلم والإرشاد.

الحقل الدّلاليّ:

شكّلت الحقول الدّلاليّة محاور مهمّة في ميدان التّأسيس لمعالجات كثيرة تستدعيها تلك الحقول، والحقل الدّلاليّ "مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع عادة تحت لفظ عامّ يجمعها"[3]، وهذه الكلمات لها حضورها القويّ في فتح المجال للاتّساع الدّلاليّ، وتعميق فاعليّات الدّلالات المختلفة، إنّها مجموعة تربطها حدود منظّمة. والحقول الدّلاليّة تستدعي العلاقة بين الدّالّ والمدلول، وهي علاقة موجودة منذ الأزل، فهناك دائماً ارتباط بين هيكليّة القول وصياغته، وبين ما يؤدّيه من دلالة.

[1] علم اللسانيّات الحديثة، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء، عمّان – الأردن، ط1، 2002م ، ص370.
[2] لسان العرب، ابن منظور، مادّة (دلل)، ج394/4.
[3] علم الدّلالة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة – مصر، ط4، 1993م، ص79.

الحنين إلى الوطن في شعر عمر أبو ريشة:

يعدّ الحنين إلى الوطن من أكثر الرّواسب الوجوديّة تأثيراً في الوجدان الإنساني، فالحنين ليس شعوراً عابراً بالشّوق إلى مكان نشأ فيه الإنسان، ومساحة وُلِد وترعرع فيها، لكنّه منظومة وجدانيّة تتّصل بالهوية والذاكرة الثقافيّة، فيرتبط المرء بالأرض والنّاس والقيم، وهذا يولّد لديه حلقات انتمائيّة، تتحدر من داخل الوطن وتنمو في روح الإنسان الذي يشعر عندما تنقطع الصّلة بينه وبين ماضيه وانتمائه ومحيطه الأصلي بالحنين، مشوباً بالألم والرّغبة في استرجاع ذكريات الماضي، ما يجعل مشهد الحنين مليئاً بالدّموع والآهات، وأماني الاستقرار والعودة إلى الوطن.

ويبدو الحنين في شعر عمر أبو ريشة في مظاهر عدّة، منها:

أ- الحنين إلى المكان:

يُشكّل الحنين إلى المكان ركناً مهمّاً من أركان المساحة النّفسيّة؛ لأنّ المكان لا يغدو مجرّد جغرافيا تحتضن المرء، إنّما يصبح مأوى للذكريات والمشاعر، وأرضاً صلبة للتّشبّث بالهوية والانتماء؛ لذا يستدعي هذا المكان كلّ ما احتضنه من أحداث يعيش الشّاعر مع ذكرياتها، فينشأ صراع بين اللذة والألم، وبين الطّمأنينة في ذاك المكان والقهر الذي عاشه في بعده عنه، وهذا يعمّق الإحساس بالفَقد، وقدرة المكان على تشكيل ذاكرة تنبض بالحنين والرّغبة والألم معاً.

يُشكّل الحنين إلى المكان ميداناً واسعاً للتّفريغ الشّعوريّ، ففي قول الشّاعر في قصيدة عنوانها (طلل)[1]: [من المتقارب]

قِفـــي قـــدمي! إنّ هـــذا المكـــان يغيـــبُ بـــه المـــرءُ عـــن حِسّـــهِ

رِمـــالٌ وأنقـــاضُ صـــرحٍ هـــوتْ أعاليـــه تبحـــثُ عـــن أُسِّـــهِ

[1] الأعمال الكاملة- القصائد، عمر أبو ريشة، تحقيق: فايز الدّاية، وسعد كليب، ومحمّد قجّة، الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق – سورية، ط1، 2017م، ج50/1.

أُقلّـــبُ طَرفِـــي بـــه ذاهِـــلاً وأَســـألُ يَـــومِي عـــن أمسِـــهِ

أكانـــت تســـيلُ عليـــه الحيـــاةُ وتغفـــو الجفـــونُ علـــى أنســـهِ

وتشـــدو البلابـــلُ فـــي سَـــغْدِه وتجـــري المقـــاديرُ فـــي نَحسِـــهِ

أأســـتنطِقُ الصّـــخرَ عـــن ناحِتَيـــه وأســـتنهضُ الميْـــتَ مـــن رَمْسِـــهِ؟

حـــوافرُ خيـــلِ الزّمـــانِ المُشـــتّ تكـــاد تُحـــدِّثُ عـــن بؤسِـــه!

فمـــا يرضَـــعُ الشّـــوكُ مـــن صـــدرِهِ ولا ينعَـــبُ البـــومُ فـــي رأسِـــهِ

وتلـــك العناكِـــبُ مـــذعورةٌ تريـــدُ التّفلُّـــتَ مـــن حَبسِـــهِ

يتراءى حقل الحنين إلى المكان في النّصّ السّابق عبر استعمال الشّاعر لكثير من الألفاظ التي تشير إلى الحنين والمكان، وفق الآتي:

الألفاظ الدّالة على المكان
المكان، رمال، أنقاض، الصّخر، رمسه، حبسه

الألفاظ الدّالّة على الحنين
تبحث، أُقلّب طرفي، أمسه، أستنطق، أستنهض، صدره، مذعورة

يتراءى الحقلان السّابقان وفقاً لسلسلة من العلاقات الدّلاليّة التي تمثّلت بالظّواهر الآتية:

- التّضاد: الذي تبدّى في قوله: (هوت، أعاليه)، كما يبدو التّضاد الحادّ بين المفردتين (سعده، نحسه).
- التّنافر: في قوله: (يومي، أمسه).
- علاقة الجزء بالكلّ: في قوله: (حوافر خيل الزّمان)، فالحوافر جزءٌ حقيقيٌّ من الخيل.

إنّ "إدراك الإنسان للزّمن إدراك غير مباشر، فهو يتحقّق من خلال فعل الإنسان وعلاقته بالأشياء، في حين إدراك الإنسان للمكان إدراك حسّيّ مباشر، وهو يستمرّ مع الإنسان خلال سِنِيَّ عمره، ما يُؤكّد حتميّة العلاقة التي تربط بين الإنسان والمكان، ومباشرتها وملازمتها لحركة الإنسان"[1]، وهذا يستدعي الإقرار بأثر المكان في المرء، ولاسيّما الشّاعر بما يملك من رهافة وحسّ يقظ، وقد أبرزت علاقات اللغة التي وقفنا عندها تراوح المكان بين عنصري الزّمن (يومي، أمسه)، والمصير (هوت، أعاليه)، و (سعده، نحسه)، ما يعني غلبة هيمنة المكان على الدّلالة العامّة.

يضجّ النّصّ بالعلاقة بين الماضي وواقع الغربة المؤلم، وبين الحياة والموت، والأمل والانكسار، ففي قول الشّاعر: (رمال، أنقاض) يبرز حضور الخراب والاندثار في المكان المتهدّم

[1] بناء فضاء المكان في القصّة العربيّة القصيرة، محمّد السّيّد إسماعيل، دار الثقافة والإعلام، الإمارات – الشّارقة، ط1، 2002م، ص12.

المُشبع بالفقد، ثمّ نجد قوله: (أقلّب طرفي ذاهلاً) مبرزاً دهشة الصّدمة؛ لذا كان ردّ الفعل (أستنطق الصّخر، أستنهض الميت)، في مفارقة صادمة لمحاولة يائسة يسعى من خلالها إلى إحياء ما اندثر، واستعادة الحياة وصور الماضي وأصواته، مواجهاً الصّمت والعدم، ثمّ تأتي حوافر خيل الزّمان لتعبّر في علاقة الجزء بالكلّ عن أثر الفناء والتّعاسة اللاحق بالمكان، ومع هذه اللوحة التّراجيديّة نجد التّضاد في (يغيب، أستنطق)، (هوت، أعاليه)، (سعده، نحسه) يتضافران مع المفارقة التّنافريّة في (يومي، أمسه)، فغياب المرء عن حسّه عمليّة مشبعة باللاوعي والذهول والصّدمة، في حين مثّل الاستنطاق حضور الوعي والبحث عنه، ما يعزّز الصّراع بين الغياب والحضور، ونجد في الوقت ذاته تقابلاً زمنيّاً مباشراً بين الحاضر والماضي عبر (يومي، أمسه)، وعبر (الحياة والرّمس)، فالماضي في الوطن حياة، والعيش في الغربة موت، وهنا تأتي صورة العنكبوت رمزاً للعزلة والسّكون والرّغبة في التّفلّت، وهي إشارة إلى رغبة استحضار الحركة والحياة.

وفي قوله[1]: [من الخفيف]

مـــا أَرَى عـــالمَ الـــرّؤى غيـــرَ مـــأوى لنفـــــوسٍ دارتْ عليهـــــا الـــــدّوائرُ

إنّـــه الحُســـنُ كـــم يَجـــرُّ علـــى الحَســـناءِ شـــــرّاً وكـــــم يُهـــــينُ حرائـــــرْ!

يـــا بـــــلادي، وأنـــــت نهلـــــةُ ظَمـــــآنٍ وشـــــبّابَةٌ علـــــى فَـــــمِ شـــــاعرْ

كيـــفَ مالـــتْ بـــكِ الليـــالي وألـــوتْ بالبقايـــا مِـــن العهـــودِ الغـــوابرْ؟!

ورســـومُ الأقـــدامِ تبكـــي العُبوديّـــاتُ فيهـــا وتَســـتثيرُ المشـــاعرْ

[1] الأعمال الكاملة، عمر أبو ريشة، ص114.

إنّـــه الـــدّهرُ كـــم يُريـــكِ عزيـــزاً جـــدَعتْ أنفَـــه الصّـــروفُ القـــواهرْ

يتراءى المكان عالماً من الرّؤى، لكنّه المكان الذي وجد الشّاعر فيه نفسه مفجوعاً مقهوراً، فأحسّ بأنّ ذاته المنصهرة بالمكان مفجوعة، ما يُؤجّج المساحة التّفاعليّة بين المكان والشّاعر، ولاسيّما حين يستحضر لها حقلاً معجميّاً خاصّاً أساسه حقل المكان، وحقل الحزن، وفقاً للآتي:

الألفاظ الدّالّة على المكان
مأوى، بلادي، رسوم

الألفاظ الدّالّة على الحزن
الدّوائر، شرّاً، يهيب، ظمآن، مالت، الليالي، الموت، البقايا، رسوم، تبكي، العبوديّات، الصّروف، القواهر، جدعت أنفه

يوقظ المكان في ذاكرة الشّاعر الكثير من الذكريات التي يستثيرها، ويستحضر لها من العلاقات الدّلاليّة ما يُشبِع تجربته الشّعوريّة، وفق علاقة التّضاد: (يهين، حرائر)، فالإهانة هي الذّلّ، والحرّة هي الكريمة الأبيّة، المُجرّدة من الهوان والذّلّ، وقد استحضر الشّاعر هذا الطّباق السّلبي؛ ليُثير خيال المُتلقّي إلى فعل الزّمن في الإنسان.

لقد برزت الأماكن في حضورها متموّجة على مساحة الأنا الحزينة التي خلقت فضاءً له نوافذه التّفاعليّة التي برزت في النّصّ في علاقة جدليّة مستمرّة، وهذه العلاقة الجدليّة لها محور رؤيوي نفسيّ أبرز الكثير من تداعيات الشّعور الذي هيمن عليه التّمظهر المكاني الموحش المُتمثّل بالسّوداويّة المُرافقة للعبوديّات والرّسوم، والصّروف والشّرور وغير ذلك، ممّا عمّق أثر فَقْدِ الأمان والفرح معاً.

وفي قول الشّاعر[1]: [من المديد]

أصـــبحَ السّـــفحُ ملعَبـــاً للنُّســـورِ فاغضـــبي يـــا ذُرا الجبـــالِ وثـــورِي

إنَّـــه لـــم يَعُـــدْ يُكحِّـــلُ جفـــنَ الـــنَّجمِ تيهـــــاً بريشـــــهِ المنثـــــورِ

هجَـــرَ الـــوكرَ ذاهـــلاً وعلـــى عينيـــه شـــيءٌ مـــن الـــوداع الأخيـــرِ

تاركـــاً خلفَـــه مواكـــبَ سُـــحْبٍ تتهـــاوى مـــن أُفْقهـــا المَســـحورِ

وقـــف النّســـرُ جائعـــاً يتلـــوّى فـــوق شِـــلوٍ علـــى الرّمـــالِ نثيـــرِ

وهـــوى جُثّـــةً علـــى الـــذّروةِ الشّـــمّاءِ فـــي حُضـــنِ وَكْـــرِه المهجـــورِ!

أيُّهـــا النَّســـرُ هـــل أعـــودُ كمـــا عـــدتَ أم السّـــفحُ قـــد أمـــاتَ شـــعوري؟!

نلاحظ أنّ المكان تراوح بين مفتوح ومغلق، فمن الأماكن المغلقة (ملعب، الوكر، وكره)، ومن الأماكن المفتوحة: (السّفح، الجبال، الذّروة)، وقد تعالق المكانان فصوّرا التّجربة الشّعوريّة، فالعلاقة بالمكان تنطوي على جوانب شتّى ومُعقّدة تجعل معايشتنا له عمليّة متداخلة مع اللاشعور،

[1] الأعمال الكاملة، عمر أبو ريشة، ص345-346.

فهناك أماكن يعيش المرء فيها مستقرّاً، وأخرى يعيش فيها الغربة؛ لذا فإنّ اختيار المكان وتهيئته يمثلان جزءاً مهمّاً بالنّسبة إلى الإنسان[1].

وقد بنى الشّاعر المكان وفقاً للعلاقات الدّلاليّة الآتية:

- التّضاد: بنى الشّاعر التّضاد على علاقة طباق السّلب، المتمثلة بالمفردتين: (هوى، الشّمّاء).
- التّرادف: ما بين لفظتي (هجر، وداع)، وهذه العلاقة أشارت إلى مدى رغبة الشّاعر في تعزيز أمد التّجربة القاسية التي عاناها، مُصرّحاً بجرح الوطن.

يتماهى الشّاعر مع مساحة الوطن، فالصّورة المكانيّة لديه تصبح نسيجاً من ذاته وأحاسيسه، تُكسِب إنجازه الشّعريّ قيمة جماليّة تُبرز حسّ المُبدِع الجمالي، وتجعل المُتلقّي يُشعِر بالمُتعة القرائيّة في أثناء تذوّق شغف الشّاعر بالمكان، وأثر هذا المكان في التّجربة الشّعوريّة، فقوله: (أيّها النّسر هل أعود كما عدتَ) إثبات على الشّغف بالمكان والحنين إليه، هذا الحنين الذي تجلّى بوصفه رغبة في العودة إلى هذا المكان، والعيش في ربوعه، وليس الحنين إلا دفعات من الرّغبة في الشّيء والتّوق لعودته إلى مساحة التّجربة الوجوديّة، مبرزاً كمّيّة مليئة بالإحساس المُتدفّق في العاطفة والفكرة والرّؤى التي أبرزها الحقلان المعجميّان السّابقا الذكر.

وفي قول الشّاعر[2]: [من البسيط]

ويـــــا نجيعـــــاً علـــــى التّـــــذكار منســـــرباً

هـــل مـــن ضِـــمادٍ يـــردُّ الجـــرحَ مُلتئمـــا

[1] ينظر: مشكلة المكان الفنّيّ، يوري لوتمان، ترجمة: سيزا قاسم، مجلّة ألف، الجامعة الأمريكيّة، مصر، 1986م، ص83.

[2] الأعمال الكاملة، عمر أبو ريشة، ص426-428.

تلـــكَ الرّبـــوعُ التـــي نـــامَ الفخـــارُ بهـــا

لـــم تلـــقَ مـــن حولِهـــا إلا الـــذي هُـــدِما

نهفـــو إليهـــا فيبـــدو البغـــيُ مُحتـــدِماً

والـــذّلُّ مُحتكمـــاً والعـــزُّ منهزِمـــا

وللعلـــوجِ علـــى أنقاضِـــها سُـــررٌ

لـــو اســـتطاعتْ لأهـــوتْ فـــوقهم رُجُمـــا

.....

.....

أطـــلَّ يلـــثمُ جـــرحَ الأرضِ فاختضـــبتْ

شـــفاهُه بـــدماها بعـــد مـــا لَثَمـــا!

وقـــــال يـــــا أرضُ لا تســـــتعبري ألمـــــاً

فقـــــد نحـــــرتُ علـــــى أذيالـــــكِ الأَلَمـــــا

أتـــــرقصُ الطّيـــــرُ فـــــي أشـــــراكِ صـــــائدِها

ويحـــــرُس الـــــذّئبُ فـــــي أعطانِهـــــا الغَنَمـــــا!

يـــــا رمـــــلُ ... رَجْـــــعُ حُـــــداءٍ فـــــي مســـــامعنا

هـــــل حُمِّـــــلَ الرّكـــــب بُشـــــراه ومـــــا عَلِمـــــا؟!

فيُرجِـــــعُ الأرضَ ريَّـــــا بعـــــد مـــــا يبسَـــــتْ

ويمتطـــــي الـــــدّهرَ غضّـــــاً بعـــــد مـــــا هَرِمَـــــا!

نجد أنّ المكان ريشةً رسم بها الشّاعر شعريّة خاصّة، إنّها الشعريّة التي لا تنحصر "في المكان وحده، بل باتّصاله القويّ بخبرة الشّاعر ورؤيته فيه"[1]، فهي شعريّة منشؤها الحيّز الوجوديّ الذي اكتنف التّجربة الشّعوريّة المَعِيشة، وقد بنى الشّاعر تجربته في هذا النّصّ على حقول عدّة، هي: المكان والحنين والمعاناة، فبنى كلّ حقلٍ على مجموعة من المفردات وزّعها وفق الآتي:

الألفاظ الدّالّة على المكان
الرّبوع، سرر، فوقهم، الأرض، أشراك

الألفاظ الدّالّة على الحنين
التّذكار، نهفو، يلثم، احتضنت، لثما، رجّع، حداءٍ، ريٍّ.

الألفاظ الدّالّة على المعاناة
الجرح، هدما، البغي، محتدماً، الذّلّ، منهزما، أنقاضها، رحما، جرح، ألماً، تستعبري، نحرت، الألما، الذّئب، يبست، هرما

وهذه الحقول ترابطت فيما بينها بعلاقات دلاليّة عدّة، هي:

- التّرادف: وذلك في (محتدماً، محتكماً).
- التّضاد: في قوله (محتكماً، منهزماً)، (ريّا، يبست).

لقد امتلأ المكان بوحي الذات الشّاعرة المُعبِّرة عن نسقها الوجدانيّ في فيض حضورها اللامتناهي في دائرة الانفعال، ولاسيّما أنّها كانت زوايا للحنين والذّكرى، إذ ينبض النّصّ بالحنين إلى

[1] شعريّة المكان – قراءة في الشّعر، إبراهيم ملحم، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011م، ص8.

المكان والماضي المشرق الذي استحضر له صور الحياة في زمن الاستقرار ليبيّن عمق المأساة في الغربة، فقال: (نجيع، جرح) ليبرز مساحة الألم والنّزف والحنين المستمرّين، ونرى (البغي، الذلّ) لوناً من ألوان التّعبير عن الظّلم المنتشر في الواقع، لكن قوله: (رجع، حداء) إبراز للصّوت العائد في خضم ذاكرة الشّاعر الذي استحضر الحياة والجمال حين قال: (غضّاً، ريّا) موحياً بالحيوية والخصوبة والامتلاء بالحياة بعد الفَقْد، فكان التّضاد بين (جرح، ملتئم) إبرازاً للصّراع بين الأمل والألم، وكذلك الرّبوع التي كان يسودها الفخار، فالبغي والذلّ المسيطران إبراز للصّراع بين صورة الماضي المزدهر والحاضر البائس؛ لذا كان الشّباب طرفاً نفسياً يبرز حلم العودة إلى الماضي، ونجد البشرى (بشراه) رغبة حلمٍ يائس في عالم غُيّب فيه الوعي والأمل (ما علما)، وهو ما يعزّز مشهدي الخيبة والحنين.

وفي قول الشّاعر من قصيدة له يتحدّث فيها عن وجوده في مكّة[1]: [من الخفيف]

طَـــالَ حِلـــمُ الحَلِـــيمِ طـــالَ علـــى كيـــدِ العـــــــوادِي تَمـــــــرُّدَ الأنـــــــذالِ

الفُجـــاءاتُ فـــي مجالِـــكَ فـــي السّـــاحِ وفـــــي راحتيـــــك سِـــــرُّ المجـــــالِ

لـــــم تهـــــادنْ ولـــــم تـــــزَلْ تتحـــــدَّى كُـــــلَّ بـــــاغٍ أو غـــــادرٍ خَتَّـــــالِ

قُـــلْ لِمَـــنْ شـــاءَ راحـــةً فـــي ضِـــفافِ النّيـــلِ مـــن بَعْـــدِ وثبـــةِ استبســـالِ

رَبْـــعُ حِطّـــينَ مـــوحشٌ يـــا صـــلاحَ الـــدّينِ إلا مـــــــن ذكريـــــــاتِ غَـــــــوالِي

سِـــرْ بِنَـــا صـــوْبَه وَصـــلِّ بنـــا فـــي القُـــدسِ واضـــربْ حَرَامَـــه بـــالحَلالِ

[1] الأعمال الكاملة، عمر أبو ريشة، ص453.

ظهر المكان لدى عمر أبو ريشة مُجسّداً لزوايا واقعيّة لها قيمتها، فهو "يحمل قيمته الشّعريّة حين يُعيد الشّاعر إنتاج ما عرفه عنه المكان، وما استوحاه منه، بل إنّ الشّاعر الحقّ هو من ينسج المكان شعريّاً من جديد، وبطريقة لا تعزله عن منظومة الفكر الذي يمنحه إيّاه التّاريخ... حين تلتقي حدود الواقع مع حدود الخيال"[1]، ما جعل الشّاعر يبني مكانه وفقاً لحقل الموضوعات التي استمدّها من الواقع، فكنّا في المقطع السّابق أمام حقل المكان، وحقل الحنين، وحقل المعاناة، وفق الآتي:

الألفاظ الدّالّة على المكان
مجالك، السّاح، المجال، ضفاف، ربع، صوبه، القدس

الألفاظ الدّالّة على الحنين
حلم، طال، موحش، ذكريات، غوالي

الألفاظ الدّالّة على المعاناة
كيد، تمرّد، الأنذال، الفجاءات، تتحدّى، باغ، غادر، ختال، حرامه

ففي قوله: (سر بنا صوبه) حنين إلى مكان البطولة، وفي قوله: (طال حلم الحليم) حنين إلى النّجاة في الوطن؛ إذ انغمس الشّاعر في إشعاعات المكان ليُبرز حنينه إليه، هامساً بأبجديّة شعره بصوت الذات الشّاعرة التي أبرزت ارتباط ذكرياتها بالمكان نفسه الذي انخرط في دوّامة الزّمن البطوليّ، والزّمن الرّاهن المأساوي الذي استدعى الحنين لزمن البطولة ومكانها، فرسم المكان لديه

[1] المكان في شعر طاهر وطّار، باحشوان سلمى، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، السّعوديّة، 2008م، ص21.

صراعاً نفسيّاً حادّاً كابده الشّاعر، وأفصح عن معاناة الموقف الانفعاليّ المَعيش الذي فجّر الألم داخله، وصار المكان كاشفاً عن نفس حزينة مكروبة تتوق إلى الماضي، فالمكان "يعيد خلق صورة الألفة، ويزيد من سطوعها وتعميقها حدّ انفصال مكان الشّاعر نفسه عن مكان القصيدة الشّعريّة"[1].

ويمكن القول: كان المكان في بُعديه الفلسفيّ والنّفسيّ عنصراً رئيساً في تشكيل مشهد وعي المرء لذاته وهويته ووجوده، فمن النّاحية الفلسفيّة يتجاوز المكان الفضاء المادّيّ، ويتحوّل إلى حاضن للتّجربة الشّعوريّة والمعنى، وهنا تتداخل فيه تعابير الانتماء والهوية والذاكرة، ويتحوّل إلى شاهد على صيرورة الإنسان، في حين يشكّل المكان من النّاحية النّفسيّة ملاذاً عاطفيّاً، وحضناً للذكريات، فهو يبرز مشاعر المرء، ويختصر العلاقة الشّعوريّة بين الذات والمحيط في تجربة وجدانيّة عميقة.

خاتمة:

كان الحنين من أكثر الرّواسب الوجوديّة تأثيراً في وجدان الشّاعر، وقد برز بوصفه حقلاً دلاليّاً مهمّاً في شعر عمر أبو ريشة، امتزج فيه الشّوق للمكان والإنسان والذّكريات وغيرها، وقد توصّل البحث إلى النّتائج الآتية:

- أبرز تحليل الحقل الدّلاليّ للحنين في شعر عمر أبو ريشة طبيعة التّنظيم المعجميّ والدّلاليّ لهذا الحقل داخل نصوصه الشّعريّة.
- قام الحقل الدّلاليّ للحنين على شبكة من الوحدات اللغويّة الموزّعة على مجموعات دلاليّة مترابطة تأسّست على سمات دلاليّة، مشتركة، نحو استدعاء الأمكنة والأشخاص.
- انتظمت مفردات الحنين وفق علاقات ترادف وتضاد، وذلك أبرز مركزيّة هذا الحقل واتّساعه مقارنة بغيره من الحقول في ديوان عمر أبو ريشة.
- اعتمدت مفردات الحنين على تكرار دلاليّ رسّخ وحدات معيّنة، مع اعتماد الشّاعر على توسيخ شحنها الدّلاليّ عبر المجاورة المعجميّة، وأدوات الرّبط ذات الوظيفة الدّلاليّة.

[1] المكان في النّصّ الشّعريّ، كمال نجم الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط1، 1978م، ص120.

- اتّسمت البنية الدّلاليّة للحقل بالتّرابط، وأسهمت بنية السّياق في إعادة ضبط قيم المفردة الدّلاليّة تبعاً لموقعها التّركيبيّ، وارتباطها بالوحدات المجاورة.
- شكّل حقل الحنين لدى عمر أبو ريشة نظاماً دلاليّاً متماسكاً انتظم وفقاً لعلاقات ترابطيّة محدّدة أدت وظيفة مركزيّة في تشكيل البنية الدّلاليّة العامّة لمعجمه الشّعريّ.
- كشف دراسة الحقول الدّلاليّة عن البنية اللغويّة العميقة التي حكمت إنتاج المعنى داخل نصوص عمر أبي ريشة الشّعريّة.

ويمكن القول: لقد تداخلت في مشاهد الحنين تعابير الانتماء والهوية والذاكرة، فكانت شاهدة على تحوّلات صيرورة أقدار الشّاعر من حال إلى حال.

ثبت المصادر والمراجع

1- الأعمال الكاملة- القصائد، عمر أبو ريشة، تحقيق: فايز الدّاية، وسعد كليب، ومحمّد قجّة، الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق – سورية، ط1، 2017م.

2- بناء فضاء المكان في القصّة العربيّة القصيرة، محمّد السّيّد إسماعيل، دار الثقافة والإعلام، الإمارات – الشّارقة، ط1، 2002م.

3- شاعريّة المكان، جريد سليم المنصوري، دار العلم، جدّة، ط1، 1992م.

4- شعريّة المكان – قراءة في الشّعر، إبراهيم ملحم، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011م.

5- علم الدّلالة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة – مصر، ط4، 1993م.

6- علم اللسانيّات الحديثة، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء، عمّان – الأردن، ط1، 2002م.

7- لسان العرب، ابن منظور، اعتنى بتصحيحه أمين محمّد عبد الوهّاب، ومحمّد الصّادق العبيديّ، دار إحياء التّراث العربيّ، مؤسّسة التّاريخ الإسلاميّ، بيروت – لبنان، ط3، 1419 هـ - 1999 م.

8- مشكلة المكان الفنّيّ، يوري لوتمان، ترجمة: سيزا قاسم، مجلّة ألف، الجامعة الأمريكيّة، مصر، 1986م .

9- المكان في شعر طاهر وطّار، باحشوان سلمى، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، السّعوديّة، 2008م.

10- المكان في النّصّ الشّعريّ، كمال نجم الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط1، 1978م.